الحرب النفسية
في ضوء القرآن الكريم

إعداد
النقيب / فهد بن عايد العايد
١٤٢٨هـ – ٢٠٠٧م

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب تبصرة لأولي الألباب، وأودعه من فنون العلوم والحكم العجب العجاب، وجعله أجل الكتب قدرًا، وأغزرها علمًا، وأعذبها نظمًا، وأبلغها في الخطاب، ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾[الزمر: ٢٨]. لا شبهة فيه ولا ارتياب.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له رب الأرباب، الذي عنت لقيوميته الوجوه، وخضعت لعظمته الرقاب، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، المبعوث من أكرم الشعوب وأشرف الشعاب إلى خير أمة بأفضل كتاب، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى أزواجه أمهات المؤمنين، وعلى أصحابه أجمعين، والتابعين ومن تبعهم بإحسان، صلاة وسلامًا دائمين إلى يوم المآب. أما بعد:

لقد أضحت المؤسسات العسكرية مجتمعًا بحد ذاته يسهم في تنمية المجتمعات المختلفة، التي يعمل على حفظ أمنها وسلامتها من أي تهديد داخلي أو خارجي، ولا يخلو المجتمع العسكري – كأي مجتمع آخر – من علاقة تنظيمية تحكم الأفراد بداخله، حيت تتنوع المهام بينهم وتتوزع وفق أسس وضوابط محددة، وتتباين الأدوار والمهام تبعًا لطبيعة العمل المكلف به كل فرد، ومن هذه الأدوار الحرب النفسية.

وتكاد تكون الحرب النفسية المحور الرئيس في الحروب المعاصرة، منذ أن تم استخدامها على نطاق واسع في الحربين العالميتين الأولى والثانية – خاصة الحرب العالمية الثانية – ولما كانت الحرب النفسية تحتل هذه الأهمية لزم دراستها من زاوية تاريخية تأصيلية.

وقد أنزل الله تعالى كتابه الكريم على رسوله محمد ﷺ، وسجل في آياته وسوره بيانًا لأقوى مواجهة بين المسلمين من طرف، وبين أعدائهم من المنافقين ومن يقف وراءهم من المشركين واليهود من طرف آخر، وصلت إلى ما نسميه اليوم بالحرب النفسية، استخدم كل طرف فيها أقوى وأفتك الوسائل، فمن سلاح الشائعات والإرجاف التي استخدمها المنافقون، إلى أسلحة التشكيك والكيد والتضليل، وغيرها كثير، فواجههم القرآن بالفضح والتعرية، وغيرها من أساليب الحرب النفسية، كما صورته سورة التوبة، وغيرها من سور القرآن، فتعلم المسلمون من القرآن الكريم كيفية التعامل إعلاميًا مع أعدائهم.

وفي هذا البحث الذي بعنوان: «الحرب النفسية في ضوء القرآن الكريم» سنتناول الضوابط والأسس التي وضعها الإسلام لاستخدام الحرب النفسية، وذلك من خلال تقصي نصوص الكتاب والسنة، واستنباط ما فيها من أحكام وأدلة، لبيان المبادئ التي وجه الله – سبحانه وتعالى – بها رسوله الكريم والأنبياء من قبله.

وإذ أشكر الله تعالى على توفيقه؛ فإني أنسب توفيق هذا العمل إلى أهله، فأشكر السادة العلماء، وبخاصة أولئك الذين أفدت من كتبهم وأشرت إليها في قائمة المراجع، فلهم مني الشكر والاعتراف بالجميل والسبق.

أسباب اختيار الموضوع:

كان السبب الرئيس لبحث هذا الموضوع: هو تنظيم الشؤون الدينية بوزارة الدفاع والطيران الملتقى القرآني تحت عنوان: «العسكرية الإسلامية في القرآن الكريم»، وكان من محاور الملتقى موضوع: «الحرب النفسية في ضوء القرآن الكريم»، فعزز هذا الإعلان أسبابًا أخر كانت تجول في خاطري، أهمها:

١. الأثر البالغ للحرب النفسية في تغيير مسار كثير من الحروب على مر التاريخ.
٢. دور الحرب النفسية في تقوية الجبهة الداخلية وأثرها على أمن المجتمع.
٣. تنامي الحاجة لدى أفراد الجيوش الإسلامية لمعرفة كيفية استخدام الحرب النفسية.
٤. قلة الكتابة في التأصيل الشرعي للحرب النفسية.

أسئلة البحث وفرضياته:

في هذا البحث سنناقش عددًا من التساؤلات، هي:

١- ما المقصود بالحرب النفسية؟
٢- من أول من استخدم الحرب النفسية في العصر الحديث؟
٣- ما المواقف التي استخدم فيها المسلمون الحرب النفسية؟
٤- هل للحرب النفسية دور في تقوية الجبهة الداخلية؟
٥- هل اهتم القرآن بتقوية الجبهة الداخلية من خلال آياته؟
٦- كيف استخدمت الحرب النفسية ضد الأعداء في القرآن؟
٧- ما أثر استخدام الحرب النفسية على تقوية الصفوف؟

وقد وضعت بعض الفروض تُعد المحك الرئيس للبحث، وهي:

١- الحرب النفسية أعم وأشمل من أي حرب أخرى؛ لأن هدفها ذات الإنسان.
٢- لا يوجد جيش في العصر الحديث لا يستخدم الحرب النفسية.
٣- استخدم القرآن الحرب النفسية في مواقف عدة.
٤- للحرب النفسية دور في تقوية الجبهة الداخلية.
٥- اهتم القرآن بتقوية الجبهة الداخلية من خلال آياته.
٦- هناك وسائل عدة لاستخدام القرآن للحرب النفسية ضد الأعداء.

٧- للحرب النفسية أثر بالغ في تقوية الصفوف.

منهج البحث:

استخدمت في هذا البحث عددًا من المناهج البحثية المتعددة، منها بطبيعة الحال المنهج التاريخي، وكذلك استخدمت المنهج الوصفي، والمنهج الإجرائي، وقمت بدراسة استقرائية تحليلية، قائمة على البحث والتقصي في النصوص القرآنية, وفي أقوال المفسرين وأهل الاختصاص، وإعمال الفكر والنظر فيها، لاستنباط المفاهيم والدلالات المتعلقة بموضوع البحث من الآيات الدالة على تلك المفاهيم، دلالة مباشرة أو غير مباشرة، حريصًا على الخروج بنتائج مرضية، وبشكل يتناسب مع أهمية البحث، الناتجة عن أهمية وعظمة القرآن الكريم موضوع البحث، والذي أضفى بجلاله وعظمته أهمية على هذا البحث، فسعيت لأن يكون هذا الموضوع مفيدًا بقدر ما فيه من أهمية، متحريًا الدقة، ومتوخيًا الموضوعية، مستخدمًا العبارة الجزلة والمناسبة للموضوع ، من الناحية الشرعية وغيرها.

وكانت طريقتي في البحث وفق الخطوات التالية:

١- استقراء نصوص الكتاب والسنة المتعلقة بالحرب النفسية.

٢- استنباط الأحكام والضوابط للحرب النفسية من هذه النصوص، مع بيان الآداب السلوكية للمسلم في محاربة الأعداء.

٣- الاستشهاد بالحوادث والمواقف في غزوات الرسول ﷺ، والتي كانت سببًا لنزول بعض آيات القرآن الكريم، واستلهام بعض الدلالات الإعلامية من هذه المواقف.

٤- توثيق أقوال أهل العلم من مراجعه الأصلية، ما استعطت إلى ذلك سبيلاً.

٥- كتابة الآيات بالرسم العثماني، مع ترقيمها وبيان سورها.

٦- تخريج الأحاديث والآثار، مع بيان درجتها إن لم تكن في الصحيحين أو في أحدهما، فإن كانت كذلك فأكتفي حينئذٍ بتخريجها منهما، أو من أحدهما.

٧- توثيق المعاني من معاجم اللغة المعتمدة، وتكون الإحالة إليها بالمادة والجزء والصفحة.

٨- العناية بقواعد اللغة العربية والإملاء وعلامات الترقيم، ومنها علامات التنصيص للآيات الكريمة، والأحاديث الشريفة، والآثار، وأقوال العلماء.

٩- إتباع البحث بفهرس لأهم المراجع والمصادر.

صعوبات البحث:

من الصعوبات التي واجهها الباحث في هذا البحث:

١ – بالرغم من وجود المراجع التي تبحث موضوع الحرب النفسية ككل، إلا أن المراجع التي تتحدث عن الحرب النفسية في القرآن الكريم تكاد تنعدم، أو هي قليلة وغير وافية .

٢ – عدم التفرغ الكامل للبحث كان له أثر كبير في صعوبة تغطية جميع جوانب البحث، ورغم ذلك استطعت استخلاص بعض الموضوعات من كتب التفسير، وبعض المراجع القليلة، إضافة إلى كتب السيرة النبوية.

وغير ذلك لم تكن هناك صعوبات أخرى تذكر، وهذا بفضل الله – عز وجل – وتوفيقه.

أسس وخطة البحث: وتشتمل على: مقدمة، وأربعة فصول، وخاتمة.

المقدمة: وتقدمت آنفًا، واشتملت على ما يلي:

- أسباب اختيار الموضوع.
- أسئلة البحث وفرضياته.
- أسس ومنهج البحث.
- صعوبات البحث.
- خطة البحث.

الفصل الأول: وجهة النظر الإسلامية في الحرب النفسية:

ويشتمل على خمسة مباحث:

المبحث الأول: مفهوم الحرب النفسية.

المبحث الثاني: علم النفس في الإسلام.

المبحث الثالث: أهمية الحرب النفسية.

المبحث الرابع: مصادر رفع معنويات المسلم.

المبحث الخامس: الحرب النفسية بين الإسلام وعالم الكفر.

الفصل الثاني: الأساليب التي استخدمها القرآن في الحرب النفسية:

ويشتمل على أربعة مباحث:

المبحث الأول: أسلوب المقارنة.

المبحث الثاني: أسلوب التقرير.

المبحث الثالث: أسلوب الإمرار والإبطال.

المبحث الرابع: أسلوب المفاوضات.

الفصل الثالث: الأسس التي قامت عليها الحرب النفسية:

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: استخدام العدو للحرب النفسية.

المبحث الثاني: القرآن يأمر بالحذر.

المبحث الثالث: الأسس التي وضعها الإسلام للحرب النفسية.

الفصل الرابع: الحرب النفسية وتقوية الجبهة الداخلية:

ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: اهتمام القرآن بالجبهة الداخلية.

المبحث الثاني: أثر القرآن في رفع معنويات الصحابة.

الخاتمة: وتشتمل على أهم النتائج والتوصيات.

الفصل الأول

وجهة النظر الإسلامية في الحرب النفسية

وفيه خمسة مباحث:

- المبحث الأول: مفهوم الحرب النفسية.
- المبحث الثاني: علم النفس في الإسلام.
- المبحث الثالث: أهمية الحرب النفسية.
- المبحث الرابع: مصادر رفع معنويات المسلم.
- المبحث الخامس: الحرب النفسية بين الإسلام وعالم الكفر.

المبحث الأول: مفهوم الحرب النفسية

إن الحرب النفسية لفظ مركب من كلمتين: (حرب ــ نفسية)، وسنعرفه أولاً بمعناه اللفظي، ثم بمعناه الاصطلاحي باعتباره لقبًا لعلم معين.

أولاً: المعنى اللغوي:

أ ــ معنى الحرب: قال الزبيدي في "تاج العروس": (الحَرْبُ: نَقِيضُ السِّلْمُ لِشُهْرَتِه، يَعْنُونَ به القِتَال، والذي حَقَّقَه السُّهَيْلِيُّ أَنَّ الحَرْبَ هو التَّرَامِي بالسِّهَامِ، ثُمَّ المُطَاعَنَةُ بالرِّمَاحِ، ثُمَّ المُجَالَدَة بالسُّيُوفِ، ثُمَّ المُعَانَقَةُ والمُصَارَعَةُ إِذا تَزَاحَمُوا)[1].

ب ــ معنى النفسية: النفسية نسبة إلى النفس، قال ابن منظور في لسان العرب: (النفس في كلام العرب يجري على ضربين: أحدهما: قولك خرجت نفس فلان، أي: روحه، وفي نفس فلان أن يفعل كذا وكذا، أي: في روعه. والضرب الآخر: معنى النفس فيه معنى جملة الشيء وحقيقته، تقول: قتل فلان نفسه، وأهلك نفسه، أي: أوقع الإهلاك بذاته كلها وحقيقته، والجمع من كل ذلك)[2]. ومنه: قول الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ **[الزمر: ٤٢]**.

ومن الألفاظ اللغوية التي تدل على الحرب النفسية: الإرجاف، قال تعالى: ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ۝٦٠ ﴾ **[الأحزاب: ٦٠]**.

الرَّجَفَانُ: الاضْطرابُ الشديدُ: رَجَفَ الشيءُ يرجُف رَجْفًا ورُجوفًا ورجَفانًا ورَجيفًا وأَرْجَف: خَفَقَ واضْطَرَب اضْطِرابًا شديدًا. وأَرْجَفَ الْقَوْمُ إِذا خَاضُوا في أَخْبَارِ الفِتَنِ ونَحْوِهَا مِن الأَخْبَارِ السيِّئَةِ[3].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

نظرًا لأن الحرب النفسية تعتبر أحد أركان الحرب الشاملة، والتي عادة ما يعتمد عليها العسكريون، نجد أن أكثر التعريفات للحرب النفسية تعريفات عسكرية، ومن هذه التعريفات:

---

(١) تاج العروس (٢/٢٤٩).

(٢) لسان العرب (٦/٢٣٣).

(٣) انظر: لسان العرب (٩/١١٢)، وتاج العروس (٢٣/٣٢٥).

١. هي حرب هجومية يخوضها جيش بأسلحة فكرية وعاطفية من أجل تحطيم المقاومة المعنوية في جيش العدو وفي السكان المدنيين، وتخاض هذه الحرب للتقليل من نفوذ العدو في أعين الدول المحايدة[١].

٢. هي الكلمات والأفعال التي توهن من تصميم العدو على القتال بإضعاف روحه المعنوية[٢].

٣. وعرفها الجنرال مارك كلارك بقوله: يتضمن التعبير الواسع – الحرب النفسية – أي عمل من شأنه أن يجبر العدو على أن يحول رجاله وعتاده من الجبهة النشطة، وتجعله يقيد رجاله وأسلحته استعدادًا لصد هجوم لن يأتي[٣].

٤. والتعريف الذي تجمع عليه القوات العسكرية الأمريكية: الحرب النفسية: هي استخدام أي وسيلة بقصد التأثير على الروح المعنوية وعلى سلوك أي جماعة لغرض عسكري معين[٤].

٥. هي استخدام مخطط من جانب دولة أو مجموعة من الدول للدعاية، وغيرها من الإجراءات الإعلامية الموجهة، إلى جماعات عدائية أو محايدة أو صديقة، للتأثير على آرائها وعواطفها ومواقفها وسلوكها، بطريقة تعين على تحقيق سياسة وأهداف الدولة المستخدمة أو الدول المستخدمة[٥].

والذي يظهر من التعريفات السابقة أنها لا تنطبق على حقيقة الحرب النفسية الإستراتيجية، وإنما هي خاصة بالحرب النفسية التكتيكية التي يستخدمها العسكريون قبل وأثناء الحرب. فالحرب النفسية أعم وأشمل من أي حرب أخرى؛ لأن هدفها ذات الإنسان وعقله وفكره وعقيدته، والأمة كالفرد ينطبق عليها ما ينطبق عليه، والانتصار يبتدئ من العقل والروح والإرادة والنفس، والانكسار يبتدئ منها كذلك.

وما الحرب الاقتصادية والعسكرية إلا وسائل لتحقيق أهداف الحرب النفسية الإستراتيجية.

يقول أحد الخبراء العسكريين: وقد يستخدم في الحرب النفسية الإستراتيجية أكثر من أي عنصر من عناصر الحرب، فإلى جانب الدعاية والحرب الباردة قد تلجأ الدولة إلى استخدام الحرب الاقتصادية، وأحيانًا الحرب العسكرية[٦].

وعليه فيمكن القول بأن الحرب النفسية هي هدف ووسيلة في آن واحد، فهي هدف إستراتيجي للعدو، يتمثل في رغبته في السيطرة التامة على الإنسان، وله وسائل لتحقيق هذا الهدف منها: الإعلام

---

(١) د. أحمد بدر، الحرب النفسية في صدر الإسلام (العهد المدني) ص٢٧.

(٢) المرجع السابق.

(٣) صلاح نصر: الحرب النفسية، ص٧١، الوطن العربي، الطبعة الثانية ١٩٨٨م .

(٤) المرجع السابق.

(٥) المرجع السابق.

(٦) الحرب النفسية، ص٨٠، مرجع سابق.

والسياسية والاقتصاد والجيش وغيرها، فالساسة والإعلاميون والعسكريون كل واحد منهم يستخدم الحرب النفسية لتحقيق أغراضه وأهدافه، وذلك لقدرة الحرب النفسية بأساليبها ووسائلها المختلفة على إحداث التأثير، وتشكيل الآراء والقناعات المناسبة، وتكوين الاستجابات المطلوبة بطريقة لا تثير المقاومة، وبكلفة أقل، وجهدٍ أبسط.

المبحث الثاني: علم النفس في الإسلام:

كان لتطور الفكر اليوناني في عصر ما قبل الميلاد، وكذلك عناية الإسلام بالنفس، أثر كبير في توجيه أنظار علماء المسلمين إلى محاولة فهم النفس الإنسانية، وتخلصوا من الجوانب الخرافية التي كانت تبدو في الفكر اليوناني، ووضعوا بصمات من الفكر الإسلامي عليها.

وقد تعرض القرآن الكريم للنفس في قوله تعالى: ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ **[الذاريات: ٢١]** كما تعرض لطبيعة الدوافع السلبية والتي تتمثل في قتل النفس من خلال استعراض قتل ابن آدم لأخيه، وتارة يتناول جوانب النمو المختلفة للإنسان[1]؛ كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴾ **[الحج: ٥].**

كما عني الإسلام بتوجيه النظر إلى العديد من المواضيع التي تعتري نفس الإنسان؛ كما في قوله تعالى: ﴿ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ﴿٨﴾ ﴾ **[الشمس: ٧، ٨].** وفي الجانب الأخلاقي يقول النبي ﷺ: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»[2]. لذلك نرى الاهتمام بالدوافع والانفعالات النفسية؛ كما في الحديث الشريف: «**ليس الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ إنما الشَّدِيدُ الذي يَمْلِكُ نَفْسَهُ**

(١) د. رشاد الدمنهوري، المدخل إلى علم النفس العام (جدة : دار زهران ، ١٩٩٩م) الطبعة الثانية ، ص ١٤.

(٢) أخرجه بهذا اللفظ البيهقي في الكبرى، كتاب الشهادات، باب بيان مكارم الأخلاق ومعاليها (١٩١/١٠) (ح٢٠٥٧١) من حديث أبي هريرة ﷺ. وأخرجه بلفظ: «**صالح الأخلاق**» البخاري في التاريخ الكبير (١٨٨/٧) (٢٣٢٥)، وفي الأدب المفرد (ص١٠٤) (ح٢٧٣)، وأحمد في المسند (٣٨١/٢) (ح٨٩٣٩)، والحاكم في المستدرك، باب ذكر أخبار سيد المرسلين وخاتم النبيين (٦٧٠/٢) (ح٤٢٢١) وصححه.

عِنْدَ الْغَضَبِ»[1]. فكان لعناية الدين الإسلامي بالجوانب النفسية عاملاً مساعدًا في اهتمام علماء المسلمين بالنفس والسلوك، وجعلهم يقومون بالعديد من الإسهامات في مجال علم النفس.

المبحث الثالث: أهمية الحرب النفسية:

الحرب النفسية والشائعات من أعظم الأساليب الإعلامية خطرًا وأقواها تأثيرًا، ولذا عدت الحرب النفسية من أسلحة الحرب الرئيسية، حتى ليقال عنها: إنها السلاح الرابع إلى جانب الجيش والبحرية والطيران.

وقد تجلت خطورة وأثر هذين الأسلوبين – الحرب النفسية والشائعات – في غزوة تبوك بشكل جلي وكبير. فسبب الغزوة ومقدمتها في الشائعات، وسبب نتيجتها المعروفة هي الحرب النفسية.

فقد ذكر أصحاب السير أن الأنباء وصلت للنبي ﷺ أن الروم جمعت جموعًا، وأجلبت معهم لخم وجذام وغيرهم من نصارى العرب، وأن مقدمتهم بلغت إلى البلقاء[2].

وقد كان لهذه الشائعة أثرها في نفوس الصحابة، يدل على ذلك فزع عمر بن الخطاب ﷺ حين أخبره صاحبه أنه قد حدث أمر عظيم، ففزع فزعًا شديدًا، وظن أن غسان قد جاءت لغزو المدينة[3]، كما كن الخوف يتسورهم كل حين فلا يسمعون صوتًا غير معتاد إلا ويظنونه زحف الرومان.

وأما نتيجة المعركة وخشية الرومان من مواجهة الجيش الإسلامي، كذا مصالحة أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل للمسلمين[4]، فقد كانت كلها قائمة على الحرب النفسية.

ومن خلال دارسة المواقف والمواجهات التي حدثت في ذلك العصر، نستطيع أن نؤكد أن هذه الحرب كانت أعظم وأخطر حرب في تاريخ الأمة الإسلامية، وأن كل قواعد ونظريات الحرب النفسية والإعلامية وأساليبها ووسائلها المعروفة اليوم ما هي إلا نتيجة استقراء ودارسة لتلك الممارسات والمواجهات والمواقف والشخصيات.

---

(١) أخرجه البخاري ــ كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب (٢٢٦٧/٥) (ح٥٧٦٣)، ومسلم ــ كتاب البر والصلاة، باب فضل من يملك نفسه عند الغضب (٢٠١٤/٤) (ح٢٦٠٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) انظر: السيرة النبوية (٢٤/٥)، والبداية والنهاية (٢٤٢/٤).

(٣) أخرجه البخاري ــ كتاب المظالم، باب الغرفة والعلية والمشرفة (٨٧١/٢) (ح٢٣٣٥)، ومسلم ــ كتاب الطلاق، باب في الإيلاء واعتزال النساء (١١١١/٢) (ح١٤٧٩) من حديث عمر بن الخطاب ﷺ.

(٤) كما في الحديث الذي أخرجه أبو داود في سننه ــ كتاب الخراج والإمارة، باب في أخذ الجزية (١٦٦/٣) (ح٣٠٣٧)، والبيهقي في الكبرى ــ كتاب الجزية، باب من قال تؤخذ منهم الجزية عربًا كانوا أو عجمًا (١٨٦/٩) (ح١٨٤٢١) من حديث أنس بن مالك، وعثمان بن أبي سليمان أن النبي ﷺ بعث خالد بن الوليد إلى أكيدر دومة، فأُخذ، فأتوه به، فحقن له دمه، وصالحه على الجزية. قال ابن الملقن في خلاصة البدر المنير (٣٥٩/٢): «رواه أبو داود من رواية أنس بن مالك وغيره بإسناد حسن».

فمن جانب معسكر الإيمان قاد تلك الحملة نبينا محمد ﷺ، المؤيد من ربه بالوحي، والذي أطلعه الله على حقيقة خصومه، وما تكنه صدورهم وما يعلنون.

ومن جانب معسكر الأعداء قاد تلك الحملة رؤوس الجاهلية وأساطين الكفر؛ كأبي جهل وأمية بن خلف، وأبي لهب. ومن اليهود: حيي بن أخطب، وسلام بن أبي الحقيق، وكعب بن أسد، وكعب بن الأشرف. ومن المنافقين عبد الله بن أُبي، ومعتب بن قشير، وغيرهم.

فلم ولن يمر في تاريخ الأمة الإسلامية من هو أشد عداوة وأكثر خطرًا وأعظم ودهاءً ومكرًا وحقدًا من أجنحة المكر الثلاثة ومحور الشر في العهد النبوي، فاليهود لن ينجبوا أدهى وأخطر ممن ذكرنا من قياداتهم التاريخية، والمنافقون اليوم مهما بلغ نفاقهم ومكرهم فلن يبلغ أحدهم درجة ابن أُبي أو نصفها.

فكما أن مرجعية المسلمين اليوم هي الوحي وأقوال وأفعال النبي ﷺ، فكذلك المنافقون واليهود والمشركون مرجعيتهم هي أفعال وأقوال أسلافهم ممن ذكرنا. وما حملات الحرب النفسية التي توجه اليوم إلى العالم الإسلامي إلا نموذج متكرر لما فعله اليهود والمشركون والمنافقون في العهد النبوي وما بعده. والتي ذكر الله بعض صورها، فقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَال لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ **[آل عمران: ١٧٣]**. وكذا حملات التشويه والتضليل الإعلامي التي قام بها المشركون من ادعائهم تارة أن الرسول الله ﷺ ساحر، وتارة أخرى كاهن، وأخرى أنه مجنون، وكذا الحرب النفسية التي تعرض لها الصحابة رضوان الله عليهم، سواء في مكة أو المدينة.

فقد استخدمت قريش كل أساليب الإرهاب والتهديد والمضايقة، وشنت على الصحابة حربًا نفسية عاتية، منذ أن كان المسلمون في مكة، كما مارسوها بعد الهجرة، فصادروا أموال المسلمين وديارهم، ومنعوهم من أهليهم وذراريهم.

وإذا ما رجعنا إلى تعريفات الحرب النفسية التي ذكرناها سابقًا سيظهر لنا أكثر، مدى أهميتها وخطورتها.

يقول اللواء محفوظ: فمن المعروف أن إرادة القتال والمقاومة والصمود الإيجابية في العمل والإبداع والابتكار، وأن الهزيمة والاستسلام واليأس والسلبية، هي كلها حالات عقلية تنشأ في عقل الإنسان، تحت ظروف معينة، فتتوفر لديه الدوافع النفسية التي تدفعه إلى السلوك الذي يعبر عن تلك الحالات[١].

(١) لواء ركن محمد جمال الدين محفوظ، خذوا حذركم من الحرب النفسية، مجلة الوعي الإسلامي.

فالحرب النفسية بأساليبها ووسائلها، قادرة على إحداث التأثير المطلوب، وتشكيل الآراء والقناعات المناسبة، التي تحقق أهداف الجهة القائمة بها، بطريقة لا تدعو إلى الإثارة المقاومة، كما هو الحال مع أساليب المواجهة كالحرب التقليدية، وبكلفة أقل بالمقارنة مع الكلفة الباهظة لهذه الحروب.

ويبين اللواء محفوظ مكمن الخطورة في الحرب النفسية فيقول: ولذا فقد بات التعامل مع المستوى النفسي يمثل الحيز الأكبر بين الأسلحة المستخدمة لدى الجهات المتطلعة للسيطرة والتأثير على وعي الجمهور المستهدف، لما تحدثه من تأثير عميق، ولما تتمتع به الحرب النفسية من خصائص أخرى، ومن ذلك أنها مستمرة دائمة، لا تقتصر على الحروب والأزمات، ولا على الأزمنة والأوقات.

كما أنها ليست حكرًا على المؤسسة العسكرية من حيث الممارسة، بل يشترك معهم غيرهم في إدارتها وتنفيذها، لخلق قناعات وإرادات معينة، وبالتالي فكل جهد مدني أو عسكري، اقتصادي أو اجتماعي أو إعلامي يمكن استثماره في تحليل إدارة الصراع، كما تظهر خطورتها في أنها تستهدف قلب الإنسان وعقله وعواطفه(١).

ويستشهد الدكتور إبراهيم إمام على خطورة الحرب النفسية بقولي روميل وجلوبز، فيقول:

قال روميل: القائد الناجح هو الذي يسيطر على عقول أعدائه قبل أبدانهم.

وقال جوبلز وزير الدعاية الألماني: لقد استطعمنا بالإذاعة أن نقضي على روح التمرد(٢).

إن الحرب النفسية ليست مفهومًا جديدًا، فدراسة تاريخ الحروب تدلل على أن الحرب النفسية كانت مستخدمة فيها جميعًا، وليست هناك معركة لم تُستخدم فيها الحرب النفسية، إلا ما ندر. طالما أنها تعني استهداف معنويات العدو، وأن الانتصار في الحرب هو – في الحقيقة – غلبة إرادة على أخرى، ولهذا فالإسلام يولي أهمية خاصة لمفهوم هذه الحرب، انطلاقًا من اهتمامه بالواقع الروحي والنفسي للفرد والمجتمع(٣).

المبحث الرابع: مصادر رفع معنويات المسلم:

لقد عرَّفَ الإسلام الإنسان بأنه موجود ذو بعدين أحدهما معنوي والآخر مادي، وأن رفع معنويات المقاتل لا تقتصر في الإسلام على ميدان المعركة والقتال، بل هو برنامج مستمر وطويل، يبدأ منذ الولادة وينتهي في لحظة الوفاة، ويتضمن هذا البرنامج عملية تربية وتزكية وتعليم، وبعبارة أخرى نقول: إنه «الجهاد الأكبر». فإذا ما نشأ الإنسان على أساس تعاليم الإسلام السامية، فالنتيجة ستكون وجود مقاتلين شجعان، وأشخاص مقاومين، لا يعرفون الضعف والانهزام، حتى لو اجتمع

(١) المرجع السابق.

(٢) الإعلام والاتصال بالجماهير ص ٣٩٢.

(٣) مجلة المجتمع الكويتية، عدد رقم ٤٢٨، ١٧ صفر ١٣٩٩هـ، نقلا عن السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية.

عليهم جميع الأعداء بكل أسلحتهم الحديثة والمتطورة. وهذا المفهوم لا يوجد إلا في الثقافة الإسلامية الغنية، وهو ما يعجز عن فهمه الأعداء.

أما المصادر التي تغذي الإنسان المؤمن بالمعنويات، فهي:

أولاً: القرآن الكريم:

هناك آيات كثيرة في القرآن تسعى إلى رفع معنويات المقاتلين المسلمين في ساحة القتال. ومع الأخذ بنظر الاعتبار أن أغلب تلك الآيات الشريفة، نزلت في زمن حروب وغزوات الرسول ﷺ في الصدر الأول للإسلام، لكن يمكن القول: أن قسمًا من تلك الآيات تحاول الإجابة على التساؤلات التي تثيرها حرب الأعداء النفسية، كما تسعى لإجهاضها. وقسمًا آخر منها له جانب تعرّضي يسعى للتأثير على معنويات الطرف المقابل، وإجباره على الإذعان والتسليم. ومن جملة الآيات التي تؤكد القسم الأول:

قوله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، فالآية الشريفة تتوجه بالخطاب إلى المسلمين الذين شاركوا في غزوة أحد، ثاني معارك الرسول ﷺ، ففي هذه الحرب تحمَّل المسلمون هزيمة كبيرة – خلافًا للمعركة الأولى (بدر) – بسبب تسامح المسلمين في الثبات بالمكان الذي وضعهم فيه رسول الله ﷺ، وانشغالهم بجمع الغنائم، ولما أشاع المشركون بين المسلمين أن الرسول ﷺ قد قتل، أثر ذلك سلبًا على معنويات المسلمين، فقد روى الطبري في تفسيره أن رجلاً من المهاجرين مر على رجل من الأنصار وهو يتشحط في دمه، فقال: يا فلان، أشعرت أن محمدًا قد قتل؟ فقال الأنصاري: إن كان محمد قد قتل فقد بلغ، فقاتلوا عن دينكم، فأنزل الله : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ ﴾[1].

ففي هذه الآية نرى القرآن يخاطب المسلمين بلحن العتاب على أن المسلم يحمل رسالة ثقيلة تعجز عن حملها السماوات والأرض، وأن وفاة الرسول ﷺ على سبيل الفرض يجب ألا تعني الرجوع إلى الجاهلية.

كما أن هناك آيات أخرى تحاول رفع معنويات المسلمين في المواقع التي يشعرون فيها بالضعف والانكسار، مثل قوله تعالى: ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾ **[آل عمران: ١٤٠]، وقوله**

(١) تفسير الطبري (١١١/٤).

تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ١٠٤ ﴾ **[النساء: ١٠٤]**.

ويأتي التوجيه الرباني في التأثير على العدو في قول الله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ٤٤ ﴾ **[طه: ٤٤]**، فمع أن الله يعلم أن فرعون لن يتأثر، إلا أنه يُعلِّم موسى – عليه السلام – ذلك الأسلوب في التعامل. ومن جهة أخرى فإن الآية تشير إلى ترغيب موسى في الذهاب إلى فرعون، وتنفيذ الأمر الإلهي بالكامل، وفي الوقت نفسه تذكره بالطرق النفسية في التعامل مع فرعون، أي: أنَّ الكلام بلين يمكن أن يؤثر في الطرف المقابل.

كذلك يشتمل القرآن الكريم على آيات عديدة تُعنى برفع معنويات المقاتلين المسلمين. مثل الآيات التي تصف حياة الشهيد، وتُرغب في الجهاد، والصبر عند الزحف، والإيمان بالغيب وتأثيره على معنويات القوات المسلحة ... الخ، ومن جهة أخرى هناك آيات كثيرة تستهدف معنويات العدو، مثل: آيات الوعيد والعذاب... الخ.

ثانيًا: السنّة الشرْيفة:

إن نصوص السنة النبوية تأتي في كثير من المواضع كالوقود الذي يحرك معنويات المسلم إلى عنان السماء، ومن هذه النصوص ما رواه مسلم في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم بدر: «**قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض**»، فقال عمير بن الحمام الأنصاري ﷺ: يا رسول الله، جنة عرضها السماوات والأرض؟! قال: «**نعم**» قال: بخ بخ، فقال رسول الله ﷺ: «**ما يحملك على قولك بخ بخ؟**» قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاءة أن أكون من أهلها، قال: «**فإنك من أهلها**»، فأخرج تمرات من قرنه، فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قتل[1].

وبدراسة السنّة نجد روايات كثيرة تؤيد هذا الموضوع، ومنها: قوله ﷺ: «**الحرب خدعة**»[2]، والحرب النفسية من أبرز مصاديق «الخدعة».

و«الخدعة» في اللغة بمعنى: ما يُخدع به، وتعني: المكر والحيلة، وكل ذلك يجيزه الإسلام في حال الحرب مع الأعداء.

---

(1) أخرجه مسلم، كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد (١٥٠٩/٣) (ح١٩٠١) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

(2) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الحرب خدعة (١١٠٢/٣) (ح٢٨٦٤)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب جواز الخداع في الحرب (١٣٦٢/٣) من حديث أبي هريرة ﷺ. وفي الباب من حديث علي، وزيد بن ثابت، وعائشة، وابن عباس، وجابر، وأسماء بنت يزيد بن السكن، وكعب بن مالك، وأنس، رضي الله عنهم.

وبالإضافة إلى أهمية الخدعة في الحرب – كما أشرنا – فإن لإستراتيجية الدعوة في التعامل مع الشعوب الأخرى أهمية خاصة، وهذا ما نشاهده في سيرة الرسول ﷺ، وخاصة في المعارك الأولى – في التعامل مع الذين لم يسمعوا نداء الإسلام – حين دعَاهم إلى شريعة الإسلام السَّمْحة. فإستراتيجية الدعوة، تبيِّن من جهة صدق النداء الإسلامي، ومن نتائجها دعم معنويات المجاهدين المسلمين الذين سيقبلون على القتال بإيمان وعقيدة راسخة. ومن جهة أخرى تجعل الطرف المقابل يعيش لحظات من الفكر والتأمل لنفض الصدأ والغبار الذي غطى فطرته الأولى، فكثيرًا ما حدثت هذه الانقلابات الشخصية في سوح المعارك، المكان الذي يحتم على الإنسان الشجاعة وبذل النفس، والتاريخ الإسلام مليء بهذه المشاهد(١).

ثالثًا: العقل:

إذا كانت الحرب النفسية تنظر إلى إرادة ومعنويات العدو، فمع الأخذ بنظر الاعتبار العناية التي يوليها الإسلام للتعامل السلمي وسيادة السلام والهدوء في المجتمعات الإنسانية، يمكن استنتاج ما يلي:

من أهم وسائل الحرب استخدام الحرب النفسية أداة في إنهائها، ووضع حدٍّ لنزف الدماء، وفي الوقت الحاضر الذي نشاهد فيه هجمة ثقافية واسعة تشنها وسائل الإعلام المعادية على المسلمين نجد العقل يحكم بضرورة مقابلتهم بالمثل، واستخدام الوسائل الإعلامية لدحر هجمة العدو هذه، ومهاجمته في قيمه وثقافته، بالإضافة إلى العمل على حفظ ثقافة ومعنويات المسلمين، وحثهم على الحفاظ على شخصيتهم وهويتهم الإسلامية، وهذه من الضرورات التي لا يمكن إنكارها.

وهناك مكانة خاصة للحرب النفسية في الاستراتيجيات التي يضعها الاستكبار اليوم، ومثالاً على ذلك، نلاحظ أن الحرب النفسية في إستراتيجية العدو الصهيوني ترتكز على ثلاثة أسس:

١ – التظاهر بقوة جيش «إسرائيل» الذي لا يقهر.

٢ – خلق الشكوك والفرقة بين قادة وشعوب دول الطرف المقابل، وكذلك بين صفوف جيوشهم.

٣ – تشكيك المسلمين بقدرتهم على الانتصار الكامل على «إسرائيل».

المبحث الخامس: الحرب النفسية بين الإسلام وعالم الكفر:

إن الفرق بين الحرب النفسية في الإسلام وبينها في عالم الكفر فرق جوهري ناشئ عن الأسس العقائدية لكلا الطرفين، فالفهم الغربي لها يقوم على أساس الفكر «الميكافيللي»، الذي ينظر إلى الهدف فقط، بغض النظر عن نوع الوسيلة المستخدمة للوصول إليه، وخير شاهد على ذلك: الحروب التي وقعت في أواخر هذا القرن، وأبرز نموذج لها: دموية الصرب ومجازرهم في البوسنة والهرسك بحق المسلمين.

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢٩٤/١).

ويمكن مشاهدة هذه القضية أيضًا من خلال دراسة مؤلفات سياسيين معروفين، أمثال: «كلوزويتس» و«دوهه»، و«جوميني» و«نابليون» و«لينين» و«ماو».

ورغم أن الحرب النفسية ضد العدو مجازة في الإسلام إلا أنَّها تحتاج إلى إطار خاص، وبعبارة أخرى: فهي مقيدة وليست مطلقة، وهي مجازة إلى الحد الذي لا تتجاوز الأسس والقيم والكرامات الإنسانية التي يهتم بحفظها الإسلام كثيرًا(١).

وإذا كان الغرب يرى أنَّ «الغاية تبرر الوسيلة» على أساس تعالي «ميكافيللي»، فهذا الأسلوب لا يُقره الإسلام أبدًا. فالرسول الأكرم ﷺ لما حاصر حصن الطائف أمر المسلمين أن يقطع كل رجل من المسلمين خمس نخلات – أو حبلات – من كرومهم، فأتاه عمر بن الخطاب ﷺ فقال: يا رسول الله، إنها عقالم تؤكل ثمارها، فأمرهم النبي ﷺ أن يقطعوا ما أُكلت ثمرته فقط(٢).

ونرى اليوم في الغرب أسلحة التدمير الشامل تأتي على الأخضر واليابس، إضافة إلى استخدام وسائل البث عبر الأثير للمناطق الآهلة على نطاق واسع، من أجل تركيع الطرف المقابل، كل هذا يعدّ أمرًا بديهيًا وعاديًا، كما أن هذا الأمر يعدّ أحد أسس إستراتيجية الاستكبار في العصر الحاضر.

وفي الحقيقة فإن المسلمين يختلفون مع أعدائهم في نوعية الوسائل المستخدمة للوصول إلى الهدف، كما يختلفون عنهم في الهدف؛ لأن استخدام الأساليب الرذيلة وغير الشرعية يتنافى مع الأهداف السامية المنظورة.

والروايات التي أشرنا إليها في تأييد الحرب النفسية، تدلل على أنَّ الإسلام كونه أيديولوجية تنظر إلى الديانة والسياسة بعين واحدة، تحتاج إلى قوى فعّالة وقادرة، متدينة من الداخل، وذكية، وصاحبة خبرة في السياسة، لكي تحقق له أهدافه الإلهية السامية. ومثل هؤلاء الأشخاص لا يمارسون الخديعة والمكر، حتى لو عاشوا في مجتمع اعتاد أهله على المكر والخديعة والافتخار بها، فهم لا يخدعون أحدًا، ولا يدعون أحدًا يخدعهم؛ لما يمتلكون من وعْيٍ، أي أنهم في الحقيقة ليسوا من السذاجة ليكونوا أداة بيد المحترفين السياسيين، كما أنهم ليسوا من السياسيين الذين تتلاعب بهم أهواؤهم النفسية.

أما الذين اتخذوا بعض الآيات مسندًا لحفظ مكانتهم وموقعهم وتسويغ أعمالهم، فهؤلاء الأشخاص بحاجة إلى تربية في مجالات السياسة والثقافة، كما أن عليهم أن يذهبوا إلى أبعد من التقوى التي اختارها بعض الذين تركوا المجتمع والناس، ليهزموا التقوى مع وجودهم في المجتمع وفي المشاركة السياسية. ويجب أن يتَّصفوا بصفات خاصة مثل: معرفة أحوال العصر، حتى يتمكنوا من القيام

(١) عبد الوهاب كحيل : الحرب النفسية ضد الإسلام، دار الفكر العربي ، ص١٠١.

(٢) أخرجه البيهقي، كتاب السير، باب قطع الشجر وحرق المنازل (٨٤/٩) (ح١٧٨٦) من حديث عروة بن الزبير ﷺ.

بأعمالهم على أحسن وجه. فالمسلم يجب أن يكون على مستوى من الذكاء والفهم السياسي بحيث يمكنه من تشخيص العدو، والكشف عن أنواع المؤامرات المضادة لدينه وأمته.

وفي الحقيقة فإن خصائص المسلم الروحية والنفسية يجب أن تكون أعقد مما هي عليه عند السياسيين من اتباع الفكر الميكافيللي، بالشكل الذي يمكنه معرفة خدعهم ومكرهم، ولا يُفاجأ بها أبدًا؛ لأن معرفة حيل الاستكبار وخدعه هي من لوازم شخصية المسلم الفاعل والنشط، فالسبيل إلى مواجهة خدع العدو ومؤامراته الإعلامية والنفسية هي معرفة طرقها وأساليبها، من أجل احتوائها وإبطالها.

والروايات التي نشاهد فيها كلمة «خدعة» تدلل على أنه يمكن للمسلم أن يستخدم هذه الأساليب في مواجهة العدو في حدود ما يسمح به الشرع، وهذه لا يمكن تسميتها خديعة، وحديث: «المؤمن كيس فطن حذر وقاف متثبت لا يعجل»[1] يشير إلى هذه الدلالة. و«الحرب خدعة» مصطلح يعني أنه يجب أن يكون الإنسان ذكيًا وفطنًا في الحرب، كما فعل رسول الله ﷺ في حرب بدر حيث استولى على آبار الماء في بدر، أو كما فعل حذيفة بن اليمان في معركة الخندق، أو كما فعل إبراهيم – عليه السلام – كما يقول القرآن الكريم حيث كسر الأصنام ثم وضع الفأس على عاتق أكبرها.. كل ذلك يدلل على المفهوم الذي استخلصناه من الروايات وهو دليل على ما ذهبنا إليه.

والحقيقة هي أن الفارق الأساسي بين الكياسة والذكاء من جهة، والمكر والخديعة والحيلة من جهة أخرى، هو في مطابقة الأولى للشرع المقدس، والشريعة المقدسة نفسها أمرت في بعض الأحيان بأشياء خارجة عن القوانين العامة، لكنها جميعًا تهدف إلى الإصلاح والبناء. والفارق الآخر والمهم، هو أن الخديعة هي لأغراض نفسية لكن الكياسة هي في سبيل الله والآخرة والدين وأن علاماتها مشخصة.

ونشير هنا إلى نماذج من استخدامات الحرب النفسية في تاريخ الإسلام، فبعد أن صارت دعوة رسول الله ﷺ علنية – بعد ثلاث سنوات من الدعوة السرية – اتخذت معارضة قريش له أشكالاً مختلفة، فكان من جملتها: التطميع، والضغط بالقوة، والتعذيب، والحرب النفسية.

ومثالاً: كان الرسول ﷺ يستغل أيام الحج وغيرها من الأيام، ويتكلم مع الأشخاص في شأن دعوته، فكان منهم قوم يكذبون رسول الله ﷺ، ويدفعونه عما كان الله تعالى خصه به من النبوة، فكان بعضهم يقول: هو شاعر، وبعضهم يقول: هو كاهن، وبعضهم يقول: هو مجنون، وينفي جميعهم أن يكون الذي أتاهم به من وحي السماء ومن تنزيل رب العالمين قولاً![2].

---

(1) أخرجه القضاعي في مسنده (١٠٧/١) (ح١٢٨)، والديلمي في الفردوس (١٧٥/٤) (ح٦٥٤٤)، من حديث أنس بن مالك ﷺ. قال العجلوني في كشف الخفاء (٣٨٧/٢): «ضعيف».

(2) انظر: تفسير الطبري (١٨١/٧).

كما أن تعذيب بلال الحبشي وياسر وسميّة وعمار[1]، ... الخ نماذج للحرب النفسية التي شنتها قريش على المسلمين.

وبعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة، ونزول آيات الجهاد ضد الكفار والمشركين، بدأت مرحلة جديدة من الدعوة، ويندر أن تخلو معركة بين الطرفين لم تستخدم فيها الحرب النفسية، وكانت وسائل وأدوات الحرب النفسية تتناسب مع إمكانات ذلك العصر، وطبيعي أنَّها كانت تهدف إلى أمور عديدة، وفي النهاية فإن تسليم الطرف المقابل وإركاعه هو الهدف النهائي لجميعها.

(1) كما في الحديث الذي أخرجه الحاكم في المستدرك (٤٣٨/٣) (ح٥٦٦٦) عن جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ مر بعمار وأهله وهم يعذبون، فقال: «**أبشروا آل عمار وآل ياسر، فإن موعدكم الجنة**». وقال: «صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه».

الفصل الثانـي

الأساليب التي استخدمها القرآن في الحرب النفسية

وفيه أربعة مباحث:

- **المبحث الأول: أسلوب المقارنة.**
- **المبحث الثاني: أسلوب التقرير.**
- **المبحث الثالث: أسلوب الإمرار والإبطال.**
- **المبحث الرابع: أسلوب المفاوضات.**

استخدم القرآن الكريم عدة أساليب للحرب النفسية من بينها: أسلوب المقارنة، وأسلوب التقرير، وأسلوب الإمرار والإبطال، كما استخدم القرآن الكريم عدة أساليب لرفع الروح المعنوية للجنود؛ كما في الآيات التي تتكلم عن منزلة الشهيد في الجنة، وكذلك ترسيخ مبدأ أن الجهاد لله.

واستخدم أسلوب الترغيب، كما في قول موسى لفرعون حينما بعثه الله سبحانه وتعالى إليه حينما أمره الله باللين في الحديث مع فرعون، وسنعرض فيما يلي هذه الأساليب والآيات الدالة عليها:

المبحث الأول: أسلوب المقارنة:

وذلك بعرض أمرين: أحدهما هو الخير المطلوب الترغيب فيه، والآخر هو الشر المطلوب الترهيب منه، وذلك باستثارة العقل، للتفكر في كلا الأمرين، وعاقبتهما الوصول بعد المقارنة إلى تفضيل الخير واتِّباعه قال تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ **[الأنعام: ١٢٢]**

قال ابن كثير في تفسيره: (هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن الذي كان ميتًا أي: في الضلالة هالكًا حائرًا، فأحياه الله، أي: أحيا قلبه بالإيمان وهداه له ووفقه لاتباع رسله)[1].

المبحث الثاني: أسلوب التقرير:

وهو أسلوب يؤول بالمرء بعد المحاكمة العقلية، إلى الإقرار بالمطلوب، الذي هو مضمون الدعوة، قال تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ **[الطور: ٣٥-٤٥]**.

قال ابن كثير في تفسيره: (هذا المقام في إثبات الربوبية وتوحيد الألوهية، فقال تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ أي: أُوجدوا من غير موجد؟ أم هم أوجدوا أنفسهم؟ أي: لا هذا ولا هذا، بل الله هو الذي خلقهم وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئًا مذكورا)[2].

(١) تفسير ابن كثير (١٧٣/٢).

(٢) تفسير ابن كثير (٢٤٥/٤).

وهذه الآية في غاية القوة من حيث الحجة العقلية؛ لأن وجودهم هكذا من غير شيء أمر ينكره منطق الفطرة ابتداء، ولا يحتاج إلى جدال كثير أو قليل، أما أن يكونوا هم الخالقين لأنفسهم فأمر لم يدَّعوه، ولا يدَّعيه مخلوق، وإذا كان هذان الفرضان لا يقومان بحكم منطق الفطرة، فإنه لا يبقى سوى الحقيقة التي يقولها القرآن، وهي أنهم جميعًا من خلق الله الواحد الذي لا يشاركه أحد، والتعبير بالفطرة مضمون الأمر المقرر بداهة في العقل.

المبحث الثالث: أسلوب الإمرار والإبطال:

وهو أسلوب قوي في إفحام المعاندين أصحاب الغرور والصلف، بإمرار أقوالهم، وعدم الاعتراض على بعض حججهم الباطلة منعًا للجدل والنزاع، خلوصًا إلى الحجة القاطعة التي تدمغهم وتبطل حجتهم تلك، فتبطل الأولى بالتبع، وفي قصة موسى عليه السلام مع فرعون نموذج مطول لهذا الأسلوب، حيث أعرض موسى عن كل اعتراض وشبهة أوردها فرعون، ومضى إلى إبطال دعوى الألوهية لفرعون من خلال إقامة الحجة العقلية الظاهرة على ربوبية الله وألوهيته، وذلك كما قال تعالى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ **[الشعراء: ٢٤-٢٩].**

وهكذا كانت الأساليب القرآنية الكريمة، هي الركيزة في مجادلة رسول الله ﷺ للمشركين، ولما احتار المشركون في أمر الرسول ﷺ، ولم يكونوا على استعداد في تصديقه أنه رسول من عند الله، ليس لأنهم يكذبونه، وإنما عنادًا وكفرًا، كما قال تعالى: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ **[الأنعام: ٣٣].**

لذلك هداهم تفكيرهم المعوج أن يطلبوا من الرسول ﷺ مطالب، ليس الغرض منها التأكد من صدقه ﷺ، ولكن غرضهم منها التعنت والتعجيز، وكان مما طلبوه منه ﷺ:

١. أن يفجر لهم من الأرض ينبوعًا: أي يجري لهم الماء عيونًا جارية.
٢. أو تكون له جنة من نخيل وأعناب يفجر الأنهار خلالها تفجيرًا، أي: تكون له حديقة فيها النخل والعنب، والأنهار تتفجر بداخلها.
٣. أو يسقط السماء كسفًا، أي: يسقط السماء قطعًا كما سيكون يوم القيامة.

٤. أو يأتي بالله والملائكة قبيلاً.
٥. أو يكون له بيت من زخرف، أي: ذهب.
٦. أو يرقى في السماء، أي: يتخذ سلمًا يرتقي عليه ويصعد إلى السماء.
٧. أن ينزل عليهم من السماء كتابًا يقرؤونه. قال مجاهد: «كتابًا من رب العالمين إلى فلان، عند كل رجل صحيفة تصبح عند رأسه يقرؤها»(١).
٨. أن يدعو لهم ﷺ فيسير لهم الجبال، ويقطع الأرض، ويبعث من مضى من آبائهم من الموتى(٢).

إن عملية طلب الخوارق والمعجزات هي خطة متبعة على مدى تاريخ البشرية الطويل، ورغم حرص النبي ﷺ على إيمان قومه، وتفانيه في ذلك، لكن التربية الربانية التي تلقاها من ربه، والأدب النبوي الذي تأدب عليه، جعله يرفض طلب المعجزة(٣)، وإنما كانت إجابته ﷺ: **«ما بهذا بعثت، إنما جئتكم من الله بما بعثني به، فقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم»**(٤).

وانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزينًا أسفًا لما فاته مما طمع فيه من قومه حين دعوه، ولما رأى من مباعدتهم إياه، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى هذه التعنتات والرد عليها في قوله: ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا ﴿٩٥﴾ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴿٩٦﴾ ﴾ **[الإسراء: ٩٠-٩٦].**

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٦٤/١٥).
(٢) محمود مخيمر : التربية القيادية، دار الشروق، ط١، ج١ ، ص ٣١١.
(٣) المرجع السابق.
(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (١٦٥/١٥).

ونزل قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ **[الأنعام: ٢٣]**.

إن الحكمة في أنهم لم يجابوا لما طالبوا، لأنهم لم يسألوا مسترشدين وجادين، وإنما سألوا متعنتين ومستهزئين، وقد علم الحق سبحانه أنهم لو عاينوا وشاهدوا ما طلبوا لما آمنوا، ولجُّوا في طغيانهم يعمهون، ولظلوا في غيهم وضلالهم يترددون، قال سبحانه: ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْأَيَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ **[الأنعام: ١٠٩، ١١٠]** (١).

ولهذا اقتضت الحكمة الإلهية والرحمة الربانية ألا يجابوا إلى ما سألوا؛ لأن سنته سبحانه أنه إذا طلب قوم آيات فأجيبوا، ثم لم يؤمنوا، عذَّبهم عذاب الاستئصال؛ كما فعل بعاد وثمود وقوم فرعون.

وليس أدل على أن القوم كانوا متعنتين وساخرين، ومعوقين لا جادين، من وجود القرآن العظيم بين أيديهم، وهو آية من الآيات، وبينة البينات، ولذلك لما سألوا ما اقترحوا من هذه الآيات وغيرها رد عليهم سبحانه بقوله: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَـٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْأَيَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَـٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ **[العنكبوت: ٥٠-٥٢]**.

(١) صحيح السيرة النبوية، (ص٩٠).

وقد روي عن عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – أن قريشًا قالت للنبي ﷺ: ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهبًا ونؤمن بك، قال: «**وتفعلون؟**» قالوا: نعم، قال: فدعا، فأتاه جبريل فقال: إن ربك –عز وجل– يقرأ عليك السلام، ويقول: إن شئت أصبح لهم الصفا ذهبًا، فمن كفر بعد ذلك منهم عذبته عذابًا لا أعذبه أحدًا من العالمين، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة، قال: «**بل باب التوبة والرحمة**»(١). فأنزل الله تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ٥٩ ﴾ **[الإسراء: ٥٩]**(٢).

لقد كان هدف زعماء قريش من تلك المطالب، هو شن حرب إعلامية ضد الدعوة والداعية، والتآمر على الحق، كي تبتعد القبائل العربية عنه ﷺ؛ لأنهم يطالبون بأمور يدركون أنها ليست طبيعة هذه الدعوة؛ ولهذا أصروا عليها، بل لقد صرحوا بأنه لو تحقق شيء من ذلك فلن يؤمنوا أيضًا بهذه الدعوة، وهذا كله محاولة منهم لإظهار عجز الرسول ﷺ، واتخاذ ذلك ذريعة لمنع الناس عن اتباعه.

المبحث الرابع: أسلوب المفاوضات:

روي عن جابر بن عبد الله – رضي الله عنهما – أن قريشًا اجتمعت يومًا، فقالوا: انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر، فليأت هذا الرجل الذي فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وعاب ديننا، فليكلمه، ولينظر ماذا يرد عليه، فقالوا: ما نعلم أحدًا غير عتبة بن ربيعة، فقالوا: أنت يا أبا الوليد، فأتاه عتبة، فقال: يا محمد، أنت خير أم عبد الله؟ فسكت رسول الله ﷺ، فقال: أنت خير أم عبد المطلب؟ فسكت رسول الله ﷺ، فقال: إن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التي عبتها، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع قولك، إنا والله ما رأينا سخلة قط أشأم على قومه منك، فرقت جماعتنا، وشتت أمرنا، وعبت ديننا، وفضحتنا في العرب، حتى لقد طار فيهم أن في قريش ساحرًا، وأن في قريش كاهنًا، والله ما ننتظر إلا مثل صيحة الحبلى أن يقول بعضنا لبعض بالسيوف حتى نتفانى. أيها الرجل: إن كان إنما بك الباءة فاختر أي نساء قريش ونزوجك عشرًا، وإن كان إنما بك الحاجة جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلاً واحدًا، فقال رسول الله ﷺ: «**أفرغت؟**» قال: نعم، فقرأ رسول الله ﷺ: «**بسم الله الرحمن الرحيم**

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢٤٢/١) (ح٢١٦٦)، والطبراني في الكبير (١٥٢/١٢) (ح١٢٧٣٦)، والحاكم في المستدرك، كتاب التوبة والإنابة (٢٦٨/٤) (ح٧٦٠١) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٠٨/١٥).

﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ ﴾ حتى بلغ: ﴿ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ۝١٣ ﴾[فصلت: ١-١٣] فقال عتبة: حسبك حسبك، ما عندك غير هذا؟ قال: «لا»، فرجع إلى قريش، فقالوا: ما وراءك؟ قال: ما تركت شيئًا أرى أنكم تكلمونه به إلا وقد كلمته به، فقالوا: فهل أجابك؟ قال: نعم، لا، والذي نصبها بنية ما فهمت شيئًا مما قال، غير أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود، قالوا: ويلك! يكلمك رجل بالعربية لا تدري ما قال؟! قال: لا والله ما فهمت شيئا مما قال غير ذكر الصاعقة[1].

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، باب في أذى قريش للنبي ﷺ (٣٣٠/٧) (ح٣٦٥٦٠)، وأبو يعلى في مسنده (٣٤٩/٣) (ح١٨١٨). قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٠/٦): «رواه أبو يعلى، وفيه الأجلح الكندي، وثقه ابن معين وغيره، وضعفه النسائي وغيره، وبقيه رجاله ثقات».

الفصل الثالث

الأسس التي قامت عليها الحرب النفسية

وفيه ثلاثة مباحث:

- المبحث الأول: استخدام العدو للحرب النفسية.
- المبحث الثاني: القرآن يأمر بالحذر.
- المبحث الثالث: الأسس التي وضعها الإسلام للحرب النفسية.

المبحث الأول: استخدام العدو للحرب النفسية:

في الحروب النفسية في عصر النبوة نلاحظ اشتداد حركة النفاق وأساليبها مع اشتداد قوة المسلمين، وبخاصة بعد غزوة الخندق، فالدعوة أو الدولة كلها تقدمت في طريقها كلما ازداد تربص أعدائها بها، والقاعدة أن الضربة التي لا تقتل تصبح مصدر قوة للإنسان الذي يمتلك الإرادة القوية، وهذه القاعدة شديدة الوضوح في آثار الحرب النفسية.

وقد مارس المنافقون الحرب النفسية على المسلمين لتحقيق جملة من الأهداف، منها:

١ – زعزعة إيمان المؤمنين: وذلك من خلال تشكيكهم برسالة الرسول ﷺ، ولهم في ذلك مواقف كثيرة، منها ما جاء في سورة الأحزاب: قال تعالى:﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾ **[الأحزاب: ١٢]**.

وذلك أن طعمه بن أبيرق وابن قشير وجماعة نحو من سبعين رجلاً قالوا يوم الخندق: أيَعِدُنَا مُحَمَّدٌ كُنُوزَ كِسْرَى وقَيْصَرَ وأَحَدُنَا لا يَأْمَنُ على خَلائِهِ؟[١].

كما أنهم قد حاولوا التشكيك برسالة الرسول ﷺ مرة ثانية في غزوة تبوك، حين ضلت ناقة رسول الله ﷺ، فقالوا: إن محمدًا يزعم أنه نبي، وأنه يخبركم بخبر السماء، وهو لا يدري أين ناقته!! ولكن الله –عز وجل– رد على ذلك، وجعل كيدهم في نحورهم، حيث كشف الأمر للنبي ﷺ، فقال ﷺ: «**إن رجلاً يقول كذا وكذا، وإني والله لا أعلم إلا ما علمني الله، وقد دلني عليها، إنها في شعب كذا، وقد حبستها شجرة بزمامها، فانطلقوا حتى تأتوني بها**» فذهبوا ووجدوها كما قال ﷺ، فجاءوا بها[٢].

٢– بث اليأس من النصر في نفوس الجيش الإسلامي، وزعزعة الثقة في قوته من كافة الجوانب. وذلك بعدة طرق منها:

أ – إثارة الرعب: وذلك بالمبالغة في وصف قوة الأعداء، وكثرة عددهم وعدتهم، وقوة بأسهم، وتضخيم قدراتهم القتالية.

قال ابن إسحاق: وقد كان جماعة من المنافقين منهم وديعة بن ثابت ورجل من أشجع حليف لبني سلمة يقال له مخشي بن حمير يسيرون مع رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك، فقال بعضهم لبعض: أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضًا، والله لكأنا بكم غدًا مقرنين في الحبال. إرجافًا وترهيبًا للمؤمنين[٣].

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٦٦/٣) (ح٣٠١٧) من قول الزبير بن بكار. وانظر: السيرة النبوية لابن هشام (١٧٩/٤).

(٢) السيرة النبوية (٦٠/٣)، وأعلام النبوة للماوردي (ص١٥٩)، وفتح الباري (٣٦٤/١٣).

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (٢٠٥/٥).

ب – النصح بترك المواجهة نظرًا لعدم توفر الأجواء الطبيعية والمناخية المناسبة والمساعدة على النصر.

ومن ذلك قولهم: لا تنفروا في الحر، قال تعالى: ﴿ فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ ٨١ ﴾ **[التوبة: ٨١]**. فصورا للخارجين صعوبة القتال في هذا المناخ وهذا الفصل من السنة، مع وجود المشقة الحاصلة في السفر، وكذا عدم الرغبة في الخروج لتعلق قلوبهم بالزرع والثمار، ليلفتوا أنظار الجنود إليها، وهذا مما يضعف الهمم عند الجنود ويقتل العزائم. فأظهروا النصح بعدم الخروج لهذه الأسباب، وهي في الحقيقة وسائل نفسية خبيثة غير مباشرة.

٣ – بث الفرقة والشقاق بين صفوف المجتمع الإسلامي، لإضعافه وإحداث ثغرات في جبهته الداخلية، وذلك عن طريق:

أ – الدس والوقيعة، كما في قوله تعالى: ﴿ لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٤٧ ﴾ **[التوبة: ٤٧]**.

والخبال: الفساد والنميمة وإيقاع الاختلاف والأراجيف. والمعنى: أي ما زادوكم قوة ولكن طلبوا الخبال[1].

ب – العمل على تكوين الجيوب الداخلية والخلايا السرية؛ للاستفادة منهم وقت الحاجة، ولتنفيذ مخططات المنافقين – من قبل الخلايا المتأثرة بشخصيات المنافقين – بسهولة ويسر. وذلك أن المروجين وأصحاب المقترحات في الظاهر هم من عامة المسلمين ممن لم يُعرفوا بالنفاق، وذلك أدعى إلى قبول آرائهم ومقترحاتهم وأقوالهم وأفعالهم، وإن كانت تحمل في طياتها الإضرار بالمسلمين، إعمالاً لحسن الظن بهؤلاء الذين لم يُعرفوا بعد بالنفاق.

٤– العمل على إحداث فجوة عميقة وشرخ كبير في العلاقة الحسنة فيما بين القيادة الإسلامية وبين الجماهير، والعمل على زعزعة الثقة المتبادلة بمحاولة إشعار القيادة بعدم وجود الولاء الكامل لها عند الجماهير، وأن من الجماهير والأتباع من يعمل للقضاء على هذه القيادة.

وكذا السعي لإقناع الجماهير بضعف تمثيل هذه القيادة لها وبعدم شرعيتها، وذلك بعدم تمثيلها للجماهير التمثيل الصحيح الذي يراعي مصالحها ويلبي احتياجاتها.

---

(1) انظر: تفسير القرطبي (١٥٦/٨)، وفتح القدير (٣٦٦/٢).

يدل على هذا ما قام به المنافقون من محاولة اغتيال فاشلة للقيادة العليا – ممثلة بشخص النبي ﷺ – في غزوة تبوك، قال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ....﴾ **[التوبة: ٧٤]**.

قال المفسرون: وهموا بما لم ينالوا يعني: المنافقين من قتل النبي ليلة العقبة في غزوة تبوك وكانوا اثني عشر رجلاً[1].

٥ – العمل على إيقاف نشر الدعوة والزحف الإسلامي، بمحاولة القضاء على ذروة سنام الإسلام وهو الجهاد أو تحجيمه، وذلك من خلال التواصي بعدم الخروج للجهاد، وترك الإعداد له. قال تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾﴾ **[التوبة: ٨١]**.

فهؤلاء المنافقون والمتخلفون لم يكتفوا بتخلفهم وإظهار فرحهم بهذا التخلف وكذا كراهيتهم للجهاد، بل دعوا غيرهم إلى عدم الخروج، بحجة عدم توفر الظرف المناسب للغزو؛ كما سبق وأن بينا.

المبحث الثاني: القرآن يأمر بالحذر:

كذلك تبين لنا وقائع الحرب النفسية أهمية الحذر المستمر أو العيون الساهرة، فعندما أجمع الرسول ﷺ على فتح مكة كان يريد أن يجعل الأمر مفاجأة، باعتبار أن ذلك من أولويات الحروب، وكانت شوكة المسلمين قد قويت، ولم تكن الخيانة لتظهر من داخل الصفوف، ولكن سنة الله في خلقه حتى يكون الدرس المستفاد أن الحذر مستمر، وأن تظل العيون ساهرة.

كان الدرس المستفاد على يد صحابي، برغم أنه شهد بدرًا، اسمه حاطب بن أبي بلتعة، كتب كتابًا إلى قريش يخبرهم بالذي أجمع عليه رسول الله ﷺ من الأمر في السير إليهم، ثم أعطاه لامرأة، وجعل لها جعلاً على أن تبلغه قريشًا، وعلم رسول الله ﷺ، بالتآمر فبعث علي بن أبى طالب والزبير بن العوام فأدركا المرأة، وفتشا رحلها فلم يجدا شيئًا، فقال لها علي: إني أحلف بالله ما كذب رسول الله ﷺ ولا كذبنا، ولتخرجن الكتاب أو لنكشفنك، فلما رأت الجد، قالت: أعرض، فأعرض، فحلت شعر رأسها فاستخرجت الكتاب منه.

ولما سأل الرسول ﷺ حاطبًا: ما حملك على هذا؟ كان رده أنه مؤمن بالله ورسوله، ما غيّر ولا بدل، ولكنه ليس له في القوم من أصل ولا عشيرة، وله في مكة ولد وأهل فصانعهم عليهم.

---

(1) انظر: تفسير القرطبي (٢٠٧/٨).

وطلب عمر قتله ولكن الرسول ﷺ عفا عنه لأنه كان ممن شهدوا بدرًا مع الرسول ﷺ[1]، ونزل القرآن يحكم الدرس: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ ﴾ [الممتحنة: ١].

المبحث الثالث: الأسس التي وضعها الإسلام للحرب النفسية:

أولاً: المصلحة إن أدت إلى مفسدة أكبر تترك:

ذلك أن شأن المؤمن أمام أي تكليف، أو أي حكم من أحكام الشريعة هو التسليم المطلق؛ لأن الله سبحانه هو العليم الخبير، وإنما نقول هذه الحكمة، والأسباب من باب الاجتهاد، وعلى أنه مجرد احتمال؛ لأنه لا يعلم الحقيقة إلا الله، ولم يحددها لنا ويطلعنا عليها بنص صريح.

ومن هذه الأسباب والحكم والعلل بإيجاز:

١. أن الكف عن القتال في مكة، ربما لأن الفترة المكية كانت فترة تربية وإعداد في بيئة معينة، لقوم معينين، وسط ظروف معينة، ومن أهداف التربية في مثل هذه البيئة: تربية الفرد المسلم على الصبر، على ما لا يصبر عليه عادة، من الضيم حين يقع عليه أو على من يلوذون به، ليخلص من شخصه ويتجرد من ذاته، فلا يندفع لأول مؤثر، ولا يهتاج لأول مهيج، ومن ثم يتم الاعتدال في طبيعته وحركته، ثم تربيته على أن يتبع نظام المجتمع الجديد بأوامر القيادة الجديدة، حيث لا يتصرف إلا وفق ما تأمره – مهما يكن مخالفًا لمألوفه وعادته– وقد كان هذا هو حجر الأساس في إعداد شخصية المسلم لإنشاء المجتمع المسلم.

٢. ربما كان ذلك أيضا؛ لأن الدعوة السلمية، أشد أثرًا وأنفذ في مثل بيئة قريش ذات العنجهية والشرف، والتي قد يدفعها القتال معها –في مثل هذه الفترة– إلى زيادة العناد، ونشأة ثارات دموية جديدة، كثارات العرب المعروفة أمثال: داحس والغبراء وحرب البسوس، وحينئذ يتحول الإسلام من دعوة إلى ثارات، تُنسى معها فكرته الأساسية.

٣. ربما كان ذلك أيضًا اجتنابًا لإنشاء معركة ومقتلة داخل كل بيت، فلم تكن هناك سلطة نظامية عامة هي التي تعذب المؤمنين، وإنما كان ذلك موكولاً إلى أولياء كل فرد، ومعنى الإذن بالقتال في مثل هذه البيئة: أن تقع معركة ومقتلة في كل بيت، ثم يقال: هذا هو الإسلام، ولقد قيلت حتى والإسلام يأمر بالكف عن القتال، فقد كانت دعاية قريش في المواسم، إن محمدًا يفرق بين الوالد وولده، فوق تفريقه لقومه وعشيرته، فكيف لو كان كذلك يأمر الولد بقتل الوالد، والمولى بقتل الولي؟

---

(1) أخرج هذه القصة البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الجاسوس (١٠٩٥/٣) (ح٢٨٤٥)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أهل بدر (١٩٤١/٤) (ح٢٤٩٤) من حديث علي بن أبي طالب ﷺ.

٤. ربما كان ذلك أيضًا، لما يعلمه الله، من أن كثيرًا من المعاندين الذين يفتنون المسلمين عن دينهم ويعذبونهم، هم بأنفسهم سيكونون من جند الإسلام المخلص، بل من قادته، ألم يكن عمر بن الخطاب من بين هؤلاء؟[١]

٥. ربما كان ذلك أيضًا؛ لأن النخوة العربية في بيئة قبلية من عادتها أن تثور للمظلوم الذي يحتمل الأذى، ولا تتراجع، وبخاصة إذا كان الأذى واقعًا على كرام الناس فيهم، وقد وقعت ظواهر كثيرة تثبت صحة هذه النظرة في هذه البيئة، فابن الدُّغُنَّة لم يرض أن يترك أبا بكر وهو رجل كريم يهاجر ويخرج من مكة، ورأى في ذلك عارًا على العرب، وعرض عليه جواره وحمايته[٢]، وآخر هذه الظواهر نقض صحيفة الحصار لبني هاشم في شعب أبي طالب.

٦. ربما كان ذلك أيضًا لقلة عدد المسلمين حينئذ، وانحصارهم في مكة، حيث لم تبلغ الدعوة إلى بقية الجزيرة، أو بلغت ولكن بصورة متناثرة، حيث كانت القبائل تقف على الحياد من معركة داخلية بين قريش، وبعض أبنائها، لترى ماذا يكون مصير الموقف، ففي مثل هذه الحالة قد تنتهي المعركة المحدودة إلى قتل المجموعة المسلمة القليلة، حتى ولو قتلوا هم أضعاف من سيقتل منهم، ويبقى الشرك ولا يقوم للإسلام في الأرض نظام، ولا يوجد له كيان واقعي، وهو دين جاء ليكون منهج حياة ونظام دنيا وآخرة.

٧. إنه لم تكن هناك ضرورة قاهرة ملحة، لتجاوز هذه الاعتبارات كلها، والأمر بالقتال، ودفع الأذى؛ لأن الأمر الأساسي في هذه الدعوة كان قائمًا ومحققًا وهو: وجود الدعوة، ووجودها في شخص الداعية محمد ﷺ، وشخصه في حماية سيوف بني هاشم، فلا تمتد إليه يد إلا وهي مهددة بالقطع، ولذلك لا يجرؤ أحد على منعه من إبلاغ الدعوة وإعلانها في ندوات قريش حول الكعبة، ومن فوق جبل الصفا، وفي الاجتماعات العامة، ولا يجرؤ أحد على سجنه أو قتله، أو أن يفرض عليه كلامًا بعينه يقوله. إن هذه الاعتبارات كلها – فيما نحسب – كانت بعض ما اقتضت حكمة الله معه أن يأمر المسلمين بكف أيديهم، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، لتتم تربيتهم وإعدادهم، وليقف المسلمون في انتظار أمر القيادة، في الوقت المناسب، وليخرجوا أنفسهم من المسألة كلها، فلا يكون لذواتهم فيها حظ، لتكن خالصة وفي سبيل الله.

٨. قد تعلم الصحابة من القرآن الكريم فقه المصالح والمفاسد، وكيفية التعامل مع هذا الفقه من خلال الواقع، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ

(١) منير الغضبان: التحالف السياسي في الإسلام، ط١ ، ص٣٣.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الكفالة، باب جوار أبي بكر في عهد النبي ﷺ (٨٠٣/٢) (ح٢١٧٥) من حديث عائشة رضي الله عنها.

كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

وهكذا تعلم الصحابة – رضوان الله عليهم – أن المصلحة إن أدت إلى مفسدة أعظم تترك، وفي هذا تهذيب أخلاقي، وسمو إيماني، وترفع عن مجاراة السفهاء الذين يجهلون الحقائق، وتخلو أفئدتهم من معرفة الله وتقديسه، وقد ذكر العلماء بأن الحكم باقٍ في الأمة على كل حال، فمتى كان الكافر في منعة، وغير خاضع لسلطان الإسلام والمسلمين، وخيف أن يسب الإسلام أو النبي ﷺ أو الله عز وجل، فلا يحل لمسلم أن يسب صلبانهم، ولا دينهم، ولا كنائسهم، ولا يتعرض إلى ما يؤدي إلى ذلك؛ لأنه فعل بمنزلة التحريض على المعصية، وهذا نوع من الموادعة، ودليل على وجوب الحكم بسد الذرائع.

ثانيًا: ضبط النفس من الوجوبيات في الحرب النفسية:

كان رسول الله ﷺ قد أمر أصحابه بضبط النفس والتحلي بالصبر، وكان يربي أصحابه على عينه، ويوجههم نحو توثيق الصلة بالله، والتقرب إليه بالعبادة، وقد نزلت الآيات في المرحلة المكية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ ﴾**[المزمل: ١-٤]**. فقد أرشدت سورة المزمل الصحابة إلى حاجة الدعاة إلى قيام الليل، والدوام على الذكر، والتوكل على الله في جميع الأمور، وضرورة الصبر، ومع الصبر الهجر الجميل، والاستغفار بعد الأعمال الصالحة.

كانت الآيات الأولى من سورة المزمل تأمر النبي ﷺ أن يخصص شطرًا من الليل للصلاة، وقد خيره الله تعالى أن يقوم للصلاة نصف الليل، أو يزيد عليه، أو ينقص منه، فقام النبي ﷺ وأصحابه معه قريبًا من عام، حتى ورمت أقدامهم، فنزل التخفيف عنهم، بعد أن علم الله منهم اجتهادهم في طلب رضاه، وتشميرهم لتنفيذ أمره ومبتغاه، فرحمهم ربهم فخفف عنهم، فقال: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ **[المزمل: ٢٠]**.

كان امتحانهم في الفرش، ومقاومة النوم، ومألوفات النفس، لتربيتهم على المجاهدة، وتحريرهم من الخضوع لأهواء النفس، تمهيدًا لحمل زمام القيادة والتوجيه في عالمهم، إذ لابد من إعداد روحي عالٍ لهم، وقد اختارهم الله لحمل رسالته، وائتمنهم على دعوته، واتخذ منهم شهداء على الناس، فالعشرات من المؤمنين في هذه المرحلة التاريخية كانت أمامهم المهمات العظيمة في دعوة الناس إلى التوحيد، وتخليصهم من الشرك، وهي مهمة عظيمة يقدر على تنفيذها أولئك الذين: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ **[السجدة: ١٦]**. وقد وصف الله قيام الليل والصلاة فيه وقراءة القرآن ترتيلاً –أي مع البيان والتؤدة– بقوله: ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡئٗا وَأَقۡوَمُ قِيلٗا ﴿٦﴾ ﴾ **[المزمل: ٦]**، فهو أثبت أثرًا في النفس مع سكون الليل وهدأة الخلق، حيث تخلو من شواغلها وتفرغ للذكر، والمناجاة بعيدًا عن علائق الدنيا وشواغل النهار، وبذلك يتحقق الاستعداد اللازم لتلقي الوحي الإلهي: ﴿ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ ﴾ **[المزمل: ٥]**، والقول الثقيل هو القرآن الكريم، وقد ظهر أثر هذا الإعداد الدقيق للمسلمين الأوائل في قدرتهم على تحمل أعباء الجهاد وإنشاء الدولة بالمدينة، وفي إخلاصهم العميق للإسلام، وتضحيتهم من أجل إقامته في دنيا الناس ونشره بين العالمين.

الفصل الرابع

الحرب النفسية وتقوية الجبهة الداخلية

وفيه مبحثان:

- المبحث الأول: اهتمام القرآن بالجبهة الداخلية.
- المبحث الثاني: أثر القرآن في رفع معنويات الصحابة.

المبحث الأول: اهتمام القرآن بالجبهة الداخلية:

لقد كان النبي ﷺ مهتمًا بجبهته الداخلية، وحريصًا على تعبئة أصحابه بالعقيدة القوية التي لا تتزعزع ولا تلين، وكان هذا مبعثا لروح معنوية مرتفعة وقوية للدفاع وتحمل العذاب والأذى في سبيل الدعوة، وأصبحت الجماعة الأولى وحدة متماسكة لا تؤثر فيها حملات العدو النفسية، ولا تجد لها مكانا في هذه الجماعة عن طريق المؤاخاة بين المسلمين، فقد أصبحت رابطة الأخوة في الله تزيد على رابطة الدم والنسب، وتفضلها في الدين الإسلامي، وتعايش الرعيل الأول بمعاني الأخوة الرفيعة القائمة على الحب والمودة والإيثار، وكانت أحاديث رسول الله ﷺ تفعل فعلها في نفوس الصحابة، فكان ﷺ يحث المسلمين على الأخوة والترابط والتعاون وتفريج الكرب، لا لشيء إلا لرضى الله سبحانه، لا نظير خدمة مقابلة أو نحو ذلك، وإنما يفعل المسلم ذلك ابتغاء وجه الله وحده، وهذه المبادئ هي سر استمرار الأخوة الإسلامية، وتماسك المجتمع الإسلامي، وبين لهم الرسول ﷺ في الحديث القدسي الذي يرويه عن ربه سبحانه وتعالى: «**المتحابون في جلالي، لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء**»[1].

وهكذا أصبحت الأخوة الصادقة من مقاييس الأعمال، وأصبحت المحبة في الله من أفضل الأعمال، ولها أفضل الدرجات عند الله، وحذر الله تعالى المسلمين من أن تهون عليهم هذه الرابطة، ووضع لهم أساس الحفاظ عليها، فقال لهم: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ **[آل عمران: ١٠٣]**.

واستعان النبي ﷺ في ربط المجتمع الداخلي، وتوحيد جبهته لتكون قوية في مواجهة الحرب النفسية الموجهة ضدها، بالمساواة بين أفراد هذه الجبهة وإعطائهم الحرية، فهم لا يدخلون إلى هذا المجتمع إلا بالحرية، ثم كانت لهم في داخله حرية الرأي، وحرية التعبير والمشورة، أتى محمد ﷺ بمبدأ المساواة بين جميع الناس: الحاكم والمحكوم، والغني والفقير، وبين جميع الطبقات، وقد كان لهذا المبدأ العظيم أكبر الأثر في نفوس أتباع النبي ﷺ، وجعلهم يتحابون ويتماسكون ويفتدونه بأرواحهم ويدافعون عنه بكل ما أوتوا من قوة وعزيمة، فهو ﷺ لم يقر تفاوتًا بين البشر، بسبب مولد أو أصل، أو حسب أو نسب أو وراثة، أو لون. والاختلاف في الأنساب والأجناس والألوان لا يؤدي إلى اختلاف في الحقوق والواجبات أو العبادات، فالكل أمام الله سواسية، وعندما طلب أشراف مكة من رسول الله ﷺ أن يجعل لهم مجلسًا غير مجلس العبيد والضعفاء، حتى لا يضمهم وإياهم مجلس واحد،

([1]) أخرجه الترمذي، كتاب، باب ما جاء في الحب في الله (٥٩٧/٤) (ح٢٣٠)، وأحمد في المسند (٢٣٩/٥) (ح٢٢١٣٣) من حديث معاذ بن جبل ﷺ. قال أبو عيسى: «هذا حديث حسن صحيح».

بيَّن الرسول ﷺ أن جميع الناس متساوون في تلقي الوحي والهداية، ورفض كفار مكة وسادتها في ذلك الوقت أن يجلسوا مع العبيد، ومن يعتبرونهم ضعفاء أذلاء من أتباع محمد ﷺ، فنزل القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ٢٨ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقٗا ٢٩ ﴾ [الكهف: ٢٨، ٢٩]. بل إن النبي ﷺ لما أعرض عن ابن أم مكتوم الأعمى، منشغلاً بمحاورة بعض الأشراف، عاتبه الله أشد العتاب(١).

وكان من أكبر أساليب النبي ﷺ في ربطه المجتمع الإسلامي وتوحيده، وتقويته للجبهة الداخلية، وجعلها قوية البنيان متماسكة، ما دعا إليه ﷺ من التكافل المادي، والمعنوي بين المسلمين، ليعين منهم القوي الضعيف، وليعطف الغني على الفقير، ولم يترك صلى الله عليه وسلم ثغرة واحدة تنفذ منها الحرب النفسية إلى هذا الصف الإسلامي الأول، وأصبحت الجماعة الأولى صخرة عظيمة، تحطمت عليها كل الجهود والخطط التي بذلها زعماء مكة للقضاء على الدعوة.

المبحث الثاني: أثر القرآن الكريم في رفع معنويات الصحابة:

كان للقرآن الكريم أثر عظيم في شد أزر المؤمنين من جانب، وتوعده الكفار بالعذاب من جانب آخر، مما كان له وقع القنابل على نفوسهم، وقد كان دفاع القرآن الكريم عن الصحابة يتمثل في نقطتين:

أما النقطة الأولى: حث الرسول ﷺ على رعايتهم وحسن مجالستهم واستقبالهم، ومعاتبته على بعض المواقف التي ترك فيها بعض الصحابة لانشغاله بأمر الدعوة أيضًا. فحينما كان النبي ﷺ يجلس في المسجد مع المستضعفين من أصحابه: خباب وعمار، وابن فكيهة يسار مولى صفوان بن أمية، وصهيب وأشباههم، فكانت قريش تهزأ بهم، وقال الكفار بعضهم لبعض: هؤلاء أصحابه كما ترون، ثم يقولون أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا بالهدى والحق، لو كان ما جاء به محمد خيرًا ما سبقنا هؤلاء إليه، وما خصهم الله به دوننا(٢).

(١) أخرجه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة عبس (٤٣٢/٥) (ح٣٣٣١)، والحاكم في المستدرك، باب تفسير سورة عبس (٥٥٨/٢) (ح٣٨٩٦) وصححه، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٣/٢٦).

ورد الله سبحانه وتعالى على استهزاء هؤلاء الكفار مبيناً لهم أن رضا الله لبعض عباده، لا يتوقف على منزلته ولا مكانته بين الناس في الدنيا، كما يؤكد لرسوله ﷺ هذا المفهوم، حتى لا يتأثر بما يقوله الكفار، من محاولات الانتقاص من شأن هؤلاء الصحابة، ومبيناً له أيضًا مكانتهم فيقول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ **[الأنعام: ٤٢-٤٤]**.

وهكذا بين الله – عز وجل – لرسوله ﷺ شأن صحابته وقيمتهم ومنزلتهم التي يتجاهلها الكفار، ويحاولون أن ينالوا منها، بل ويزيد الله على ذلك أن ينهى الرسول عن طردهم، كما يأمر بحسن تحيتهم، ويأمره أيضًا أن يبشرهم بأن الله سبحانه قد وعد بمغفرة ذنوبهم بعد توبتهم.

كيف تكون الروح المعنوية لهؤلاء، كيف يجدون الأذى من الكفار بعد ذلك، إنهم يفرحون بهذا الأذى الذي وصلوا بسببه إلى هذه المنازل العظيمة.

ثم نرى عتاب الله لرسوله ﷺ في آيات تتلى إلى يوم القيامة، وكان هذا العتاب في شأن رجل فقير أعمى من الصحابة، أعرض عنه الرسول ﷺ مرة واحدة، ولم يجبه على سؤاله لانشغاله بدعوة بعض أشراف مكة. فنزل قول الله تعالى: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ **[عبس: ١-١٠]**.

قال المفسرون: كان رسول الله ﷺ يومًا يناجي عتبة بن ربيعة، وأبا جهل بن هشام، وأمية وأبيًا ابني خلف، ويدعوهم إلى الله تعالى، ويرجو إسلامهم فجاء ابن أم مكتوم الأعمى، فقال: علمني يا رسول الله مما علمك الله، وجعل يناديه ويكرر النداء، ولا يدري أنه مشتغل بكلام غيره، حتى ظهرت الكراهية في وجهه ﷺ لقطعه كلامه، فأعرض عنه رسول الله ﷺ، وأقبل على القوم يكلمهم، فنزلت هذه الآيات، فكان رسول الله ﷺ يكرمه بعد ذلك، ويقول: «**مرحبًا بمن عاتبني فيه ربي**» (١).

(١) انظر: تفسير الطبري (٥١/٣٠)، وزاد المسير لابن الجوزي (٢٧/٩).

إنه لا مجال للامتيازات في دعوة الحق بسبب الحسب والنسب، أو المال والجاه، فهي إنما جاءت لتأصيل النظرة إلى الإنسان وبيان وحدة الأصل، وما تقتضيه من المساواة والتكافؤ، من هنا يمكن تعليل شدة أسلوب العتاب الذي وجهه الله تعالى لرسوله للاهتمام الكبير الذي أظهره لأبي بن خلف، على حساب استقباله لابن أم مكتوم الضعيف، فابن أم مكتوم يرجح في ميزان الحق على البلايين.

أما النقطة الثانية: التخفيف عن الصحابة بضرب الأمثلة والقصص لهم من الأمم السابقة وأنبيائها، وكيف لاقوا من قومهم الأذى والعذاب؛ ليصبروا ويستخفوا بما يلاقون، وأيضًا بمدح بعض تصرفاتهم، ثم بوعدهم بالثواب والنعيم المقيم في الجنة، وكذلك بالتنديد بأعدائهم الذين كانوا يذيقونهم الألم والأذى.

فقد دافع القرآن الكريم عن الصحابة بالتخفيف عنهم، وكانت أهم وسائل التخفيف: إظهار أن هذا الأذى الذي يلقونه لم يكن فريدًا من نوعه، وإنما حدث قبل ذلك مثله وأشد منه، فكانت القصص التي تتحدث عن حياة الرسل في القرآن الكريم؛ من لدن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى -عليهم السلام- تثبيتًا للمسلمين ولروح التضحية والصبر فيهم من أجل الدين، وبينت لهم القدوة الحسنة التي كانت في العصور القديمة من أنجح الوسائل في ميادين الإعلام والتربية والتعليم، والعلاقات العامة، فالقصص القرآني يحوي الكثير من العبر والحكم والأمثال.

كان أيضًا من أساليب القرآن في تخفيفه عن الصحابة والدفاع عنهم أسلوبه في مدحهم ومدح أعمالهم في القرآن الكريم، يقرؤها الناس إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، كما حدث مع الصديق لما أعتق سبع رقاب من الصحابة لينقذهم من الأذى والتعذيب، في نفس الوقت الذي يندد فيه بأمية بن خلف الذي كان يعذب بلال بن رباح، فالقرآن بدستوره الأخلاقي قد قدم قواعد الثواب والعقاب، وشجع المؤمنين، وحذر المخالفين، وحمل هذا التنديد مغزى عميقًا فقد أنار الطريق للصحابة، وكان غمة وكربًا على نفوس الكفار المترددين إذ جاء قول الله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ **[الليل: ١٤-٢١]** (١).

كما وردت آيات عديدة في القرآن تبشر الصحابة بالثواب العظيم وبالنعيم المقيم في الجنة، جزاء بما صبروا وما تحملوا من الأذى، وتشجيعًا لهم على الاستمرار في طريق الدعوة غير مبالين بما يسمعونه وما يلاقونه، فالنصر والغلبة لهم في النهاية؛ كما بين لهم النبي ﷺ في أحاديثه، وكما بين لهم

(١) السيد قطب: في ظلال القرآن ج٦ ص٣٣٩٩.

القرآن، وبين لهم القرآن الكريم في نفس الوقت مصير أعدائهم كفار مكة، قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ ﴾ **[غافر: ٥١، ٥٢]**(١).

وبين فضل تمسكهم بالقرآن وإيمانهم به؛ كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ ﴾ **[فاطر: ٢٩، ٣٠]**.

وبين سبحانه فضل التمسك بعبادته رغم الأذى والتعذيب، وبين جزاء الصبر على ذلك قال تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾ **[الزمر: ٩، ١٠]**.

وهكذا كان القرآن الكريم يخفف عن الصحابة ويدافع عنهم، ويحصنهم ضد الحرب النفسية، وبذلك لم تؤثر تلك الحملات ووسائل التعذيب على قلوب الصحابة؛ بفضل المنهج القرآني، والأساليب النبوية الحكيمة، لقد تحطمت كل أساليب المشركين في محاربة الرسول ﷺ وأصحابه أمام العقيدة الصحيحة، والمنهج السليم الذي تشرَّبه الرعيل الأول.

(١) علي بادحدح : مقومات الداعية الناجح، ط١ ، ص٥٩: ٦٨

الخاتمة

الخلاصة والاستنتاج:

وبعد أن منّ الله – سبحانه وتعالى – بفضله وكرمه عليّ في إكمال هذا البحث، الذي أرجو منه سبحانه أن يكون قد حقق أهدافه، وأن يكون فيه النفع للإسلام والمسلمين.

نخلص إلى أن هذا البحث يشتمل على دراسة تأصيلية للحرب النفسية من خلال الدراسة التحليلية تحليلاً إعلاميًا لبعض آي القرآن الكريم، وبيان أن الحرب النفسية لها أصولها وأسسها بهذا الدين الحنيف، كما أنها ضرورة عصرية يحتاج إليها الإنسان المسلم وغيره في ظل هذه الهيمنة الثقافية والإعلامية المخالفة للشرع الحنيف ولفطرة الإنسان.

كما أظهر هذا البحث مدى العلاقة الوثيقة والحميمة، بين المحاربين لهذا الدين بمناهجهم المختلفة اليهودية منها والشركية والنفاقية، فقد أظهر البحث مدى التوافق والتداخل في كثير من الأهداف والوسائل والأساليب في هذه المناهج والمدارس الثلاث.

وعند قراءة هذا البحث نجده يتطرق إلى أهم مقومات الحرب النفسية من وجه نظر القرآن الكريم واهتمامه، فيتحدث عن أهمية الحرب النفسية، ووضع المعايير لها من الجوانب الأخلاقية، ويتعرض لطبيعة الجوانب السلبية المتمثلة في قتل الناس.

والحرب النفسية تعرف بأنها الاستخدام المبرمج للإعلام وأدواته للنفوذ في معنويات العدو.

وهناك جوانب تغذي المؤمن بالمعنويات منها: القرآن، والسنة النبوية المطهرة، وكذلك العقل.

ففي القرآن هناك الآيات التي نزلت في زمن الغزوات، وهناك آيات أخر تحاول رفع معنويات المسلمين في المواقع التي يشعرون فيها بالضعف والانكسار، وفي السنة المطهرة هناك الروايات التي تتحدث عن جواز الخدعة في الحرب، وكذلك عن استراتيجيات التعامل مع الشعوب الأخرى، وهي التي تجعل الطرف المقابل يعيش لحظات من الفكر والتأمل، أما العقل فالإسلام يدعو إلى التعامل السلمي وسيادة السلام والهدوء.

وقد استخدم القرآن عدة أساليب للحرب النفسية منها: أسلوب المقارنة بغرض الترغيب للخير والترهيب من الشر، وأيضًا أسلوب التقرير وهو الذي يؤول بالمرء إلى المطلوب بعد المحاكمة العقلية، ومنها أيضًا أسلوب الإمرار والإبطال وهو قوي في إفحام المعاندين وعدم الرد على حججهم الباطلة بغرض منع الجدل والنزاع، وأيضًا أسلوب المفاوضات الذي ساعد على التفاوض مع المشركين من أجل الدعوة.

أما عن استخدامات العدو للحرب النفسية فقد حذر القرآن منها، وكان ذلك جليًا في الحصار الذي ضربته قريش على المسلمين، واحتمال رسول الله ﷺ والمسلمين معه لهذا الحصار.

وهناك عدد من الأسس وضعها الإسلام للحرب النفسية منها: أن المصلحة إذا أدت إلى مفسدة أكبر تترك، فقد أُمر المسلمون بالكف عن القتال في مكة؛ لأن الفترة المكية كانت فترة تربية وإعداد، ولأن الدعوة السلمية كانت أشد أثرًا في ذلك الوقت واجتنابًا لنشوء معركة داخل كل بيت، ومن الأسس أيضًا التي وضعها الإسلام للحرب النفسية: ضبط النفس، فقد ربى الإسلام الصحابة على ضبط النفس في الأمر بقيام الليل، فقد كان الامتحان في الفراش ومقاومة النوم لتربية الناس على المجاهدة وتحريرهم من الخضوع للأهواء.

أما عن الاهتمام بالجبهة الداخلية فقد كان للحرب النفسية شأن عظيم فيها، إذ كانت هناك أخوة صادقة بمقاييس الأعمال، وقد عمل الرسول ﷺ على تقوية الجبهة الداخلية لتكون قادرة على مواجهة الحرب النفسية، وقد رد القرآن على المستهزئين بالمسلمين، وبين الله تعالى لرسوله شأن هؤلاء الصحابة وقيمتهم ومنزلتهم التي يتجاهلها الكفار.

ثم نرى كيف عاتب الله رسوله ﷺ في آيات تتلى إلى يوم القيامة، وكان هذا في شأن رجل فقير هو ابن أم مكتوم، وللقرآن أثر في رفع معنويات الصحابة وشد أزرهم وتوعده للكفار بالعذاب الأليم، وقد كان لهذا وقع كبير في نفوسهم.

ودفاع القرآن يتمثل في نقطتين: الأولى منهما: في حث الرسول ﷺ على رعايتهم وحسن مجالستهم واستقبالهم، ومعاتبته على بعض المواقف التي ترك فيها الصحابة لانشغاله بأمر الدعوة، والثانية: في التخفيف عن الصحابة بضرب الأمثلة من الأمم السابقة وأنبيائها، وكيف لاقوا من قومهم الأذى، وهو ما يؤكد أن ما يلاقيه الصحابة ليس أمرًا فريدًا، وكان أيضًا من أساليب القرآن في تخفيفه عن الصحابة والدفاع عنهم أسلوبه في مدحهم ومدح أعمالهم في القرآن الكريم، وكان للآيات التي تبشر الصحابة بالثواب العظيم أكبر الأثر، فتأكدوا أن النصر والغلبة لهم بعد ذلك، وبين لهم فضل تمسكهم بعبادتهم رغم الأذى والتعذيب.

التوصيات

يجب التنبيه والتوعية على أهمية وخطورة الحرب النفسية، وهي أسلوب شديد الخطورة والحساسية حيث تقوم كل الجيوش باستخدامه.

يجب التنبيه والتوعية بهذا الأسلوب، والذي كثر استخدامه في الآونة الأخيرة في وسائل الإعلام، وما له من دور في الهجمة على الإسلام، وكذلك على الشعوب الإسلامية في مجالات حياتها المختلفة.

وليس أدل من استخدام القرآن لأساليب الحرب النفسية المختلفة، وهو ما دللنا عليه في هذا البحث، وهو ما يؤكد جواز استخدامها ولكن بالمعايير الإسلامية.

كذلك نوصي بإقامة محاضرات للضباط والأفراد على حد سواء، للتعرف على أساليب الأعداء وكيفية استخدامهم للحرب النفسية.

ونوصي أيضًا بعمل خطط إعلامية طويلة المدى، وخطط أخرى قصيرة المدى؛ للتعريف بالحرب النفسية وخطورتها، وحشد الرأي العام ضدها، لتجنب خطط أعداء الإسلام، والحذر من مخططاتهم.

ونؤكد على ضرورة وضع مناهج منظمة لقيادة الحرب النفسية والحرب النفسية المضادة بغرض التعريف والتوعية وتوجيه الطاقات في هذا المجال.

فهرس المصادر والمراجع

١. الأدب المفرد، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي دار البشائر الإسلامية، بيروت الطبعة الثالثة ١٤٠٩ هـ .

٢. أعلام النبوة، أبو الحسن علي بن محمد الماوردي الشافعي، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ.

٣. الإعلام والاتصال بالجماهير، إبراهيم إمام، مكتبة الأنجلو مصرية، الطبعة الثانية ١٩٧٥م.

٤. تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية.

٥. التاريخ الكبير، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق: السيد هاشم الندوي، دار الفكر، بيروت.

٦. التحالف السياسي في الإسلام، منير الغضبان، الطبعة الأولى.

٧. التربية القيادية، محمود مخيمر، دار الشروق، الطبعة الأولى.

٨. تفسير ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن كثير، دار الفكر، بيروت، طبعة١٤٠١هـ.

٩. تفسير الطبري، محمد بن جرير الطبري، دار الفكر، بيروت، طبعة ١٤٠٥هـ

١٠. تفسير القرطبي، عبد الله بن محمد القرطبي، دار الشعب، القاهرة.

١١. الحرب النفسية ضد الإسلام، عبد الوهاب كحيل، دار الفكر العربي.

١٢. الحرب النفسية في صدر الإسلام (العهد المدني)، د. أحمد بدر، عالم الكتب للطباعة والنشر، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ.

١٣. الحرب النفسية، صلاح نصر، الوطن العربي، الطبعة الثانية ١٩٨٨م.

١٤. خلاصة البدر المنير، عمر بن علي بن الملقن، تحقيق حمدي عبدالمجيد إسماعيل، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.

١٥. زاد المسير في علم التفسير، عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي،المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٤هـ.

١٦. سنن البيهقي الكبرى، أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق محمد عبدالقادر عطا، دار الباز، مكة المكرمة، طبعة ١٤١٤هـ.

١٧. سنن الترمذي، محمد بن عيسى الترمذي، ت. أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث، بيروت.

١٨. سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث أبو داود، تحقيق محمد محي الدين، دار الفكر.

١٩. السيرة النبوية، عبد الملك ابن هشام، تحقيق طه عبدالرؤوف سعد، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١هـ.

٢٠. صحيح البخاري، محمد إسماعيل البخاري، تحقيق د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ .

٢١. صحيح السيرة النبوية، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، طبعة ٢٠٠١م.

٢٢. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث، بيروت.

٢٣. فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، تحقيق: محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت.

٢٤. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، دار الفكر ، بيروت.

٢٥. الفردوس بمأثور الخطاب، أبو شجاع شيرويه بن شهردار بن شيرويه الديلمي الهمذاني، تحقيق: السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى١٤٠٦ هـ.

٢٦. في ظلال القرآن، السيد قطب.

٢٧. كشف الخفاء، إسماعيل بن محمد العجلوني، تحقيق أحمد القلاش، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٥هـ.

٢٨. لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى.

٢٩. مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم، الطبعة الأولى.

٣٠. مجلة المجتمع الكويتية، العدد(٤٢٨)، ١٧/صفر/ ١٣٩٩هـ.

٣١. مجلة الوعي الإسلامي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت.

٣٢. مجمع الزوائد، أبو بكر الهيثمي، دار الريان للتراث، القاهرة ، بيروت، طبعة ١٤٠٧هـ

٣٣. المدخل إلى علم النفس العام، د. رشاد الدمنهوري، دار زهران، جدة، الطبعة الثانية ١٩٩٩م.

٣٤. المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبدالله الحاكم، تحقيق محمد عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١هـ.

٣٥. مسند الإمام أحمد، أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني، مؤسسة قرطبة، مصر.

٣٦. مسند الشهاب، محمد بن سلامة القضاعي، تحقيق حمدي عبدالمجيد السلفي، مؤسسة الرسالة،

بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ

٣٧. مسند أبي يعلى، أحمد بن علي الموصلي، تحقيق حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، دمشق، الطبعة الأولى١٤٠٤هـ.

٣٨. مصنف ابن أبي شيبة، عبدالله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي، تحقيق كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.

٣٩. المعجم الكبير، سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبدالمجيد السلفي، مكتبة الزهراء، الموصل، الطبعة الثانية ١٤٠٤ هـ.

٤٠. مقومات الداعية الناجح، علي بن عمر بادحدح، دار الأندلس الخضراء، الطبعة الأولى.